المقياس:صناعة المعاجم. **د/ن. حنّاشي**

السنة: *ماستر 2 /لسانيات عربية.*

المحاضرة الثالثة

"المعجم العربي القديم"

إن فكرة المعجم الشامل أو الموسوعي في اللغة العربية تعود إلى زمن بعيد، حيث بدأت تتبلور في أذهان اللغويين العرب منذ منتصف القرن الثاني الهجري، أي قبل أكثر من ألف عام. وقد شهدت تلك الفترة جهوداً متميزة في تأليف المعاجم اللغوية، والتي تعدّ من أهم المراجع في تاريخ اللغة العربية. ومن أبرز تلك الجهود ما قدمه الخليل بن أحمد الفراهيدي، ذلك العالم اللغوي البارز، الذي وضع معجمه الشهير "كتاب العين" في القرن الثاني الهجري (100-170ه). وقد تميّز معجم "العين" بطريقة إحصائية مبتكرة قامت على أسس علمية دقيقة، حيث راعى الخليل بن أحمد عدة عوامل في ترتيب مفردات اللغة، ومنها: حجم الكلمة، والترتيب الصوتي، ونظرية العناصر، والتوافيق والتباديل، بالإضافة إلى مبدأ "بدء الثاني مما يلي الأول".

وقد شكلت هذه الأسس منهجية فريدة في تأليف المعاجم، حيث ساهمت في تنظيم المفردات اللغوية وترتيبها بشكل منطقي ومتماسك. ومع مرور الزمن، استمرت المعاجم اللغوية العربية في التطور والتنوع، حيث شهدت القرون الثلاثة التالية تطورات ملحوظة في هذا المجال. فقد تنوعت المعاجم في طرق ترتيبها وتصنيفها، بشكل لم تشهده معاجم اللغات الأخرى. فبعض المعاجم رتّبت الألفاظ بحسب الترتيب الصوتي، أو الألفبائي، أو بحسب الأبنية والأوزان، بينما رتّبت معاجم أخرى المفردات بحسب المعاني والمفاهيم. كما اختلفت طرق الترتيب الألفبائي، فبعضها رتب الألفاظ بحسب الأوائل، والبعض الآخر بحسب الأواخر. هذا التنوع والثراء في المعاجم العربية يعكس غنى اللغة العربية وتطورها عبر العصور، حيث أصبحت المعاجم مراجع أساسية للباحثين والدارسين، وشاهداً على الإرث اللغوي والحضاري للأمة العربية.

و جدوى الاختيار القائم على اعتبار أنّ الحرف الأخير يمثل بابًا على حين يعد الحرف الأوّل فصلاً، بعد تجريد الكلمة و ترتيبها، يكشف عن اجتهاد خاص بعلماء الدرس العربي، و كان من وراء ذلك دافع فنّي و

توظيفي، و ذلك لأنّ "لام" الفعل أكثر ثباتا من "فائه" و لأنّ الشعراء كانو يبحثون عن الحرف الأخير من بعض الألفاظ حتى تستقيم قوافيهم[1] .

إنّ المعاجم العربية في قرونها الأولى كانت نتاجاً لاجتهادات فردية متميزة، حيث برزت ريادة فردية في تأليف المعاجم اللغوية، وكان لكل عالم لغوي بصمته الخاصة وأسلوبه المميز. فعلى سبيل المثال، يُعد "الخليل بن أحمد الفراهيدي "رائداً في الطور الأول من المعجم العربي، حيث قام ببناء معجمه "كتاب العين" على أساس الإحصاء الرياضي، مُعتمداً على أسس علمية دقيقة في ترتيب المفردات. وقد مثّل معجم "العين" مرحلة مهمة في تاريخ المعاجم العربية، حيث وضع أسساً منهجية لتصنيف الألفاظ وترتيبها. أمّا الطور التأليفي الآخر، والذي يقوم على المسح الميداني والتحقق من المادة اللغوية، فقد مثّله العالم اللغوي "الأزهري" في معجمه "تهذيب اللغة". فقد قام "الأزهري" بجمع المادة اللغوية من مصادرها المختلفة، واعتماد مبدأ المسح الميداني للقبائل والمجتمعات، ثم التحقق من صحة الألفاظ ومدى شيوعها واستخدامها. وقد ترك "الأزهري" بصمته الخاصة في هذا المعجم، حيث أضاف منهجه الخاص في التحقق والتصنيف، مما جعله مرجعاً مهماً للباحثين.

ومع مرور الوقت، استمرت الجهود في تطوير المعاجم العربية، حيث ظهرت معاجم أخرى اختارت مبدأ الانتقاء والاختيار، ولكنها حملت في طياتها جهد أصحابها ومنهجهم الخاص. فكل عالم لغوي أضاف لمسة تميز خاصة به، سواء في طريقة جمع المادة اللغوية أو في أسلوب التصنيف والترتيب. وهذا التنوع والتميز في المعاجم العربية يعكس غنى اللغة العربية وثراءها، حيث أصبح لكل معجم طابعه الخاص وشخصيته المميزة.

ومن الجدير بالذكر أنّ ما قام به علماء اللغة العربية في القرون الأولى يشبه إلى حد كبير النظريات اللسانية الحديثة، والتي تهتم بالرصيد اللغوي وتحليله وتصنيفه. فالعلماء العرب اهتموا بجمع الألفاظ وتصنيفها، سواء كانت ألفاظاً إيجابية شائعة الاستخدام أو ألفاظاً سلبية غير مستخدمة. وقد قاموا بتوثيق كل ما عرفته القبائل من ألفاظ، ثم جاء مؤلفو المعاجم لاحقاً ليحتفلوا بهذا الإرث اللغوي الغني، ويحتفظوا به في مؤلفاتهم. فكانوا بذلك رواداً في مجال توثيق اللغة وتصنيفها، مما جعل معاجمهم مراجع أساسية للباحثين والمهتمين باللسانيات واللغة العربية.

اثمرت حركة الجمع ما عرفته القبائل الفصيحة من ألفاظ، و صنفوها في مجموعات دلالية تضمنت مجموعة من الكتب. ألّف "الاصمعي"(ت 216ه) في خلق الغنسان، و الإبل، و الخيل، و الوحش، و النبات، و الشجر. و ألّف "أبو زيد الأنصاري" في اللبن، المطر، النبات و الشجر. و ظلت الرسائل هي الشكل الوحيد

[1] -ينظر: البدراوي زهران."المعجم العربي تطور و تاريخ في ضوء نظريات علم الدلالة لدى المحدثين"، ص 20-22.

الذي اتخذته دراسة الألفاظ العربية من الناحية الدلالية وقتا طويلا إلى ان برزت إلى الدوائر العلمية حركة تأليف المعاجم[2].

ثم ألّف "الخليل بن احمد الفراهيدي"(170ه) كتاب "العين" فكان أوّل معجم لغوي مرتب و موسّع عرفته العرب في وقت مبكر بطريقة إحصائية. ثم تتابعت المعاجم في القرون الثلاثة التالية، و تنوعت بشكل لا تكاد تعرفه معاجم اللغات الأخرى، فرُتّبت إمّا بحسب الالفاظ أو بحسب المعاني. و رُتّبت معاجم الالفاظ إمّا بحسب التريب الصوتي، أو الألفبائي أو بحسب الأبنية (الأوزان)، و رُتّبت المعاجم الالفبائية إمّا بحسب الأوائل أو الأواخر[3].

مكانة هذه المعاجم لا يكاد يُغني واحد مها على الآخر. و قد اعترف بهذه الحقيقة المستعرب الكبير "جون.أ. هيوود" في كتابه الموسوم بـ: "صناعة المعاجم في العربية" أو إذا صحّ التعبير "معجمات اللغة عند العرب"، إذ يقول: "و كان لدى العرب معجم شامل هو "لسان العرب" كانت دونه دقّة و شمولاً معاجم سائر اللغات قبل القرن التاسع عشر"[4]. و توزعت هذه المعاجم من ناحيةترتيبها للألفاظ الواردة فيها إلى مدارس مختلفة و صار لكل مها مهجها الخاص. و هو ما تلخصه النقاط التالية:

أولا/معاجم الترتيب الصوتي:

يعدّ كتاب "العين" أقدمها، أوّل معجم حصر ألفاظ العربية على نحو شامل و في إطار نظام منهجي واضح. و قد اتفق الباحثون على أنّ خطة كتاب "العين" من عمل الخليل، لكن مدى إسهامه و إسهام تلميذه "الليث بن المظفر" في تنفيذ المعجم ظلّ موضع خلاف[5].

يقوم منهج "الخليل" في ترتيب ألفاظ اللغة العربية على مجموعة أسس[6]:

أ-ترتيب الكلمات باعتبار حروفها الأصول فقط: إن منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في ترتيب الكلمات في معجمه الشهير "كتاب العين" يعدّ منهجاً فريداً ومبتكراً في تاريخ المعاجم العربية. وقد قام هذا المنهج على أساس صرفي دقيق، حيث ركز على التمييز بين الحروف الأصول والحروف الزوائد في الكلمة الواحدة. فكان الخليل يرتب الكلمات بحسب حروفها الأصول، متجاهلاً الحروف الزائدة، مما أعطى ترتيباً منطقياً ومتماسكاً للمفردات اللغوية.

هذا الأساس الصرفي الذي اعتمده الخليل في معجمه يختلف عن الرسائل والتصانيف الأخرى التي صنفت الألفاظ تصنيفاً موضوعياً. ففي "كتاب العين"، رتب الخليل الكلمات بناءً على بنيتها الصرفية، مما

---

[2] -محمود فهمي حجازي."أسس علم اللغة"، دار الثقافة للطباعة، القاهرة، 2003م، ص 99.
[3] -أحمد مختار عمر."صناعة المعجم العربي الحديث"، ص 26.
[4] -عدنان الخطيب."المعجم العربي بين الماضي و الحاضر"، ناشرون، ط 2، 1994م، المقدمة.
[5] -ينظر: حسين نصار."المعجم العربي النشأة و التطور"، ج1، ص 279 و ما بعدها.
[6] -ينظر:محمود فهمي حجازي."أسس علم اللغة"، ص 101-106.

جعل المعجم مرجعاً مهماً في دراسة الصرف والنحو. وقد ساهم هذا المنهج في تنظيم اللغة العربية وتصنيف مفرداتها بشكل منهجي، مما جعل "كتاب العين" مرجعاً أساسياً للباحثين واللغويين.

من الجدير بالذكر أنّ المبدأ الذي وضعه الخليل في "كتاب العين" ظلّ متعارفاً عليه في المعاجم العربية العامة حتى العصر الحديث. فقد اعتمدت معظم المعاجم اللغوية العربية هذا المبدأ في ترتيب الكلمات، حيث راعت الحروف الأصول دون الحروف الزوائد. وهذا يدل على أهمية منهج الخليل وتأثيره في تطوير المعاجم اللغوية.

مع ذلك، لم تلتزم جميع المعاجم الحديثة بهذا المبدأ، حيث خالفت قلة من المعاجم التعليمية الحديثة هذا الأساس الصرفي، واعتمدت طرقاً أخرى في الترتيب. ولكن على الرغم من ذلك، يبقى منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في ترتيب الكلمات مرجعاً مهماً وموثوقاً به في دراسة اللغة العربية وتصنيف مفرداتها.

ب- إنّ منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في ترتيب الكلمات في معجمه "كتاب العين" كان منهجاً شاملاً ودقيقاً، حيث لم يقتصر على الترتيب الخارجي للألفاظ، بل امتد ليشمل الترتيب الداخلي للمادة اللغوية الواحدة. فقد قام الخليل بترتيب الكلمات داخل كل مادة لغوية على أساس الأبنية، حيث رتبها حسب عدد حروفها. فبدأ بالثنائي مثل "قد" و"لم"، ثم الثلاثي مثل "ضرب" و"خرج"، ثم الرباعي مثل "دحرج"، وأخيراً الخماسي مثل "اقشعر."

هذا الترتيب الداخلي للأبنية كان منهجاً مبتكراً في ذلك الوقت، حيث ساهم في تنظيم الكلمات داخل كل مادة لغوية بشكل منطقي ومتماسك. وقد التزمت العديد من المعاجم العربية التالية بمنهج الخليل في الترتيب الداخلي، مما يدل على أهمية هذا المنهج وتأثيره في تطوير المعاجم اللغوية. ومن هذه المعاجم: "البارع" للقالي، و"تهذيب اللغة" للأزهري، و"المحيط" للصاحب بن عباد، و"المحكم والمحيط الأعظم" لابن سيده.

وقد ساهم التزام هذه المعاجم بمنهج الخليل في الحفاظ على الترتيب الداخلي للأبنية، مما جعلها مراجع موثوقة ومتسقة في ترتيب الكلمات. فمن خلال اتباع هذا المنهج، تمكن اللغويون من تنظيم اللغة العربية وتصنيف مفرداتها بشكل دقيق، مما ساعد الباحثين والدارسين على فهم اللغة واستخدامها بشكل أفضل.

ج- إنّ منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه "كتاب العين" كان منهجاً شاملاً ودقيقاً في ترتيب الكلمات وتصنيفها. فقد قام الخليل بوضع الكلمة ومقلوباتها في مادة واحدة، مما ساهم في تنظيم اللغة العربية بشكل منهجي. فعلى سبيل المثال، قام الخليل بترتيب الكلمات التي تحتوي على الحروف (ك، ت، ب) في مادة واحدة، حيث يمكن لهذه الحروف أن تتخذ ترتيبات مختلفة مثل: كتب، كبت، تكب، تبك، بكت، بتك. وقد اعتبر الخليل جميع هذه المواد مجموعة واحدة، حيث رتبها في مادة لغوية واحدة.

هذا المنهج المبتكر سمح بتصنيف الكلمات وتصنيفها بشكل منطقي، حيث تم تجريدها من حروفها الزائدة ووضعها في أول موضع ممكن. فمن خلال هذا الترتيب، تمكن الخليل من تنظيم الكلمات ذات الحروف المتشابهة في مادة واحدة، مما سهل عملية البحث والتصنيف. وقد أطلق الخليل على الكلمات الموجودة والمستخدمة مصطلح "المستعمل"، بينما أطلق على الصيغ غير الموجودة نظرياً مصطلح "المهمَل."

إنّ منهج الخليل في وضع الكلمة ومقلوباتها في مادة واحدة يعدّ منهجاً فريداً في تاريخ المعاجم العربية، حيث ساهم في تنظيم اللغة وتصنيفها بشكل دقيق. وقد ساعد هذا المنهج الباحثين واللغويين على فهم اللغة العربية وتصنيف مفرداتها بشكل أفضل، مما جعل "كتاب العين" مرجعاً مهماً وموثوقاً به في دراسة اللغة العربية.

د- إنّ منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في ترتيب الحروف العربية كان منهجاً دقيقاً ومبنياً على أسس علمية. فقد قام الخليل بترتيب الحروف وفقاً لمخارجها الصوتية، حيث بدأ بأصوات الحلق، ثم انتقل إلى باقي الحروف، وانتهى بالحروف الشفوية. وقد ختم ترتيبه بأصوات العلة والهمزة، حيث اعتبرها أصواتاً مهمة في اللغة العربية. ومن الجدير بالذكر أن الخليل بدأ معجمه بحرف العين، وذلك لاعتباره الصوت الحلقي الأول الذي لا يتغير في الأبنية الصرفية.

هذا المنهج في ترتيب الحروف العربية كان له تأثير كبير على المعاجم اللغوية العربية التي تلت معجم "كتاب العين". فقد احتفظت مجموعة من المعاجم العربية العامة بمنهج الخليل، وطبقته من جوانب مختلفة، ولكنها اختلفت في ترتيب الحروف بشكل طفيف. ومن هذه المعاجم: "البارع" للقالي، و"تهذيب اللغة" للأزهري، و"المحيط" للصاحب بن عباد، و"المحيط الأعظم" لابن سيده.

وقد تم تأليف هذه المعاجم في القرنين الرابع والخامس الهجري في مناطق متباعدة من العالم الإسلامي. فعلى سبيل المثال، ألف القالي معجمه "البارع" في الأندلس، بينما ألف ابن سيده معجمه "المحكم والمحيط الأعظم" أيضاً في الأندلس. أما معجما "تهذيب اللغة" للأزهري و"المحيط" للصاحب بن عباد، فهما معجمان مشرقيان ألفا في خراسان. وهذا التنوع في أماكن تأليف هذه المعاجم يدل على انتشار منهج الخليل وتأثيره في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

إنّ منهج الخليل في ترتيب الحروف العربية كان له دور مهم في تنظيم اللغة وتصنيفها، حيث ساهم في تسهيل عملية البحث والدراسة. وقد استمر تأثير هذا المنهج في المعاجم اللغوية العربية لقرون عديدة، مما يدل على أهميته وقيمته في دراسة اللغة العربية.

ثانيًا/ معاجم الترتيب الهجائي:

إنّ معاجم الترتيب الهجائي في اللغة العربية تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين، حيث تختلفان في طريقة ترتيب الكلمات بناءً على الحرف الأول أو الحرف الأخير من حروفها الأصول. **المجموعة الأولى** بدأت بمعجم "كتاب الحروف" أو "كتاب الجيم" للشيباني، والذي توفي عام 206هـ. في هذه المجموعة، يتم ترتيب الكلمات وفقاً للحرف الأول من حروفها الأصول، مما يسهل عملية البحث والوصول إلى الكلمة المطلوبة.

أما **المجموعة الثانية**، فقد بدأت بمعجم "ديوان الأدب" للفارابي، والذي توفي عام 350هـ، ومعجم "الصحاح" للجوهري، والذي توفي عام 393هـ. في هذه المجموعة، يتم ترتيب الكلمات وفقاً للحرف الأخير من حروفها الأصول، مما يتيح طريقة مختلفة لتصنيف الألفاظ. وقد أفادت معاجم الترتيب الهجائي من منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي، حيث التزمت بذكر الكلمات باعتبار حروفها الأصول، تماشياً مع الأساس الصرفي الذي وضعه الخليل.

لقد ظل هذا المبدأ سائداً في جميع المعاجم العربية قبل العصر الحديث، حيث التزمت به معاجم الترتيب الصوتي ومعاجم الترتيب الهجائي على حد سواء. وهذا يدل على أهمية منهج الخليل وتأثيره في تطوير المعاجم اللغوية العربية. وقد استمرت المعاجم في التطور والازدهار، حيث شهدت القرون التالية تنوعًا كبيرًا في المعاجم الخاصة والعامة. ومن بين المعاجم الخاصة، برز معجم "أساس البلاغة" كنموذج متميز يسير على ترتيب الحروف الهجائي، حيث قام بتنظيم الكلمات وترتيبها بشكل دقيق. وقد ساهم هذا المعجم في تسهيل عملية البحث والوصول إلى الكلمات، مما جعله مرجعاً مهماً للباحثين والدارسين.

إنّ المعجم العربي في ذلك الوقت كان زمنه طويلاً وسعته كبيرة، حيث امتدت فترة تطوره وتنوعه لأكثر من اثني عشر قرنًا. وقد احتوت المعاجم على مجلدات ضخمة وغنية بالمعلومات اللغوية. كما أن الرسائل الخاصة ساهمت في التنظيم والترتيب، حيث سارعت إلى تبني طرق الترتيب الهجائي قبل المعاجم الكبيرة.

لقد كان للمعاجم العربية دور مهم في الحفاظ على اللغة العربية وتصنيف مفرداتها، حيث ساهمت في تسهيل عملية البحث والدراسة، مما جعلها مراجع أساسية للباحثين والمهتمين باللغة العربية.